الشباب وتحدّيات الحياة في الشرق الأوسط

رفيق ابراهيم

يمثّل الشباب المسيحيّ في الشرق مستقبلنا. فمنهم من سيكونون مخترعين ورجال أعمال ومعلّمين ومهندسين ومديرين تنفيذيّين لشركات وقادة مجتمع من الرجال والنساء والرعاة. إذا كنا نريد حقّاً أن يكون لنا تأثير إيجابيّ في الأجيال القادمة، فنحن بحاجة إلى العمل معاً لمواجهة التحدّيات التي يواجهونها اليوم في بلادنا العربية ليبقى الحضور المسيحيّ مؤثّراً وفاعلاً. في ما يأتي، سنستعرض أهمّ هذه التحدّيات محاولين اقتراح بعض الحلول.

التحدّيات

تحدّيات التعليم: في كثير من كنائس الريف، يميل الشباب إلى التعليم الزراعيّ أو الفنّيّ المتوسّط وعدم استكمال التعليم الجامعيّ، ما يسبّب في بناء مهارات لا تساعده على تنمية الدخل الماديّ، ويجعل الفرص المتاحة أمامه للنموّ والتقدّم في الحياة قليلة، وتالياً مدى تأثيره في المجتمع الذي يعيش فيه. لذلك، علينا تشجيع الشباب على بناء المهارات اللازمة لسوق العمل وبناء مستقبل مادّيّ يساعده على العيش.

تحدّيات العمل: سوق العمل في بلادنا لا يرتبط بالكفاءات، بل «بالوساطة». فمَن له عائلة وقبيلة ذات سلطة في المجتمع سيرتقي إلى مناصب أعلى سواء في الشركات أو الجامعات. لذا، يحصل دين الغالبيّة على وظائف أفضل، ويعاني مسيحيّو الشرق من عدم حصولهم على الترقيات، إذ يقتصر تولّي المناصب السياديّة على الغالبيّة، ويتمّ تعيين بعض المسيحيّين في مناصب ثانويّة وبنسبة صغيرة.

تحدّيات اقتصاديّة: الاقتصاد في كثير من البلاد العربيّة يعتمد على أصحاب النفوذ والسيادة، ويستلزم الأمر في كثير من الأحيان دفع رشاوى، بحيث ربّما يَصعب على المسيحيّين من رجال الاقتصاد استثمار أموالهم من دون الدخول في هذا السياق. ولأنّ بعضهم يريد أن يسلك بإمانة، يجد صعوبةً في تنامي رأس المال، الأمر الذي يدفع البعض إلى الاستثمار خارج البلاد، ما يسبّب خسارةً في الحضور والتأثير. ومع الوقت يكون من الصعوبة بمكان تحقيق متطلّبات العيش المشترك، لأنّ المسيحيّين سيزدادون فقراً.

تحدّيات الصحّة: إنّ نظام التأمين الصحّيّ يكاد يكون منعدماً في بعض البلدان. فمنظومة الصحّة تعاني ضعفاً شديداً بسبب عدم وجود بنية تحتيّة للمجتمعات الريفيّة والصناعيّة، فضلاً عن الزحام الشديد في بعض العواصم. كما يقاسي المجتمع كثيراً من الأمراض المستوطنة. وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها الدول في منظومة الصحة، إلّا أنّ الزيادة السكانيّة تلتهم كلّ تنمية. وبالطبع تعاني المجتمعات الفقيرة من تردّي الحالة الصحّيّة، وهذا يهدّد بانتشار الأمراض بين الفقراء، الذين يعيشون في الأماكن الشعبيّة بإعداد كبيرة.

تحدّيات التعصّب الدينيّ: الخطاب الدينيّ المتعالي يترك تأثيراً سلبيًّا في الفئات غير المثقّفة ولدى الذين نالوا قسطاً قليلاً من التعليم، ما يهدّد بتنفيذ أعمال إرهابيّة ضدّ التجمّعات المسيحيّة في بلاد الشرق، وهذا يؤجّج التعصّب الدينيّ بين فئات الشعب. والغريب أنّنا نرى هذا المشهد يتحوّل إلى أوروبّا أيضاً، فنجد أحداثاً إرهابيّةً تجري ضدّ المسيحيّين في قلب العواصم الأوروبيّة. وقد أصبح هناك خوف كبير من هذا التيّار، ما أدّى إلى دقّ ناقوس الخطر لمواجهة موجات التعصّب الدينيّ.

تحدّيات الزواج: مع ارتفاع تكاليف الزواج، تزداد نسبة العنوسة والعزوبة خصوصاً لدى الأقلّيّات. والغريب أنّنا نجد أنّ الأُسر المسيحيّة هي التي تنظّم النسل، وتحاول تحديد عدد المواليد، وهذا يؤدّي إلى تناقص في أعداد

المسيحيّين، حتّى إنّنا ومع الوقت نجد انقراضاً لبعض العائلات في كثير من الأماكن التي كانت قديماً تجمّعات مسيحيّة. والآن نشهد تحوّلاً رهيباً، فعلى سبيل المثال كان مسيحيّو لبنان يشكّلون أكثر من ٦٠٪ من عدد السكّان، والآن لا تزيد نسبتهم عن ٣٥ ٪. وهذا مؤشّر خطير يهدّد التنوّع في مجتمعات الشرق الأوسط على المدى البعيد.

تحدّيات الخدمة في الكنيسة: هناك كثير من المشاكل التي تعانيها الكنيسة، وخصوصاً في أوساط الشباب. فالتيّار الإلحاديّ يزداد، وظاهرة الانتحار أيضاً. كما نجد شباباً يعيش حياةً بلا معنى ولا مستقبل، ويسعى للهجرة بكلّ ما أوتي من قوّة حتّى يغادر هذه البلاد التي تقتل الطموح في داخله. والمشكلة أيضاً نجدها في عدم استيعاب الكنيسة لهذه النوعيّة من الشباب والفتيات، فيكون مصيرهم خارج الكنيسة. وهم مع الوقت يكدّرون المجتمع بأفعالهم المشينة، وينعدم العيش المشترك بين فئات الشعب، ما يسبّب حالةً من اللامبالاة وعدم الاهتمام والصراع، وينعدم المناخ الجيد لنموّ الشخصيّة نموّاً صحيحاً متوازناً، حتّى إنّهم يصبحون تربةً خصبةً لنموّ كلّ الشرور الاجتماعيّة.

تحدّيات الهجرة: الهجرة غير الشرعيّة أصبحت كابوساً مرعباً لكثيرين في بلادنا، وخصوصاً للشباب الذين يغرقون بالمئات بسبب محاولتهم أن يهاجروا بطريقة غير شرعيّة إلى الساحل الأوروبيّ رغبةً في حياة أفضل، لكنّهم يواجهون الموت في قوارب غير شرعيّة عبر البحار.

تحدّيات فكريّة: يستسلم الشباب إلى أفكار الثقافة المجتمعيّة. وكلّما شعروا بأنّهم أقلّيّة، يزداد شعورهم بالدونيّة، ما يجعلهم يتبنّون مع مرور الوقت قيم مجتمع الغالبيّة. ويتناسى المسيحيّون منهم هويّتهم وثوابت إيمانهم، الأمر الذي يقود إلى التحوّل الى دين الغالبيّة ويسبّب حرجاً في المجتمع الكنسيّ، ثمّ حالةً من اليأس والاستسلام.

تحدّيات التكنولوجيا الحديثة: أصبحت وسائل التواصل الحديثة سبباً مباشراً لتناقل الأخبار بسرعة كبيرة بين المجتمعات والأُسَر. وبات من الصعب أن تخبّئ أيّ شيء، فالكلّ أصبح مكشوفاً. ومع استخدام تكنولوجيا الهواتف المحمولة، ازداد التواصل، وارتفع منسوب القدرة على نقل الصورة والصوت. وقد تسبّب هذا في حالات من الصراعات الأُسريّة والخيانة الزوجيّة والطلاق. ومع الوقت نرى أنّ هذا يهدّد السلم الاجتماعيّ بين الأقلّيّة الدينيّة والغالبيّة التي يحاول بعض أفرادها الاستحواذ على كلّ شيء، حتّى البحث عن الفتيات ومحاولة إغوائهنّ بالمال طمعاً في التحوّل الدينيّ، ومن ثمّ الزواج. ويسبّب هذا حالةً من الاحتقان الداخليّ لدى الأقلّيّات، وينشئ صراعات تهدّد العيش المشترك بين المواطنين.

الحلول

الإصغاء المتبادل: نحن نعيش في عالم يكثر فيه الكلام، وينعدم الاستماع تقريباً. والسؤال المطروح هو: هل يمكنني الاستماع للآخر؟ هل يمكنني الدخول إلى عالمه أو عالمها؟ تميل المجموعات المتديّنة إلى عدم قدرتها على الإصغاء. فالتقدير لرأي الجماعة هو الأساس. وتسعى هذه الجماعة إلى ربط المؤمنين بعضهم مع بعض وتطوير مواقف معادية تماماً تجاه غير المؤمنين بما تؤمن هي به. مع الأسف، نجد في معظم الأحيان الأشخاص المتديّنين محاطين بأشخاص مثلهم. والمتديّن المتعصّب كثيراً ما لا ينجح في عالم نريد فيه تنوّعاً على المستويات كافّةً. علينا، إذاً، بالاستماع الجيد وقبول الآخر، فهذا يعزّز قيم العيش المشترك.

الحرّيّة الدينيّة: حرّيّة الاعتقاد هي المبدأ الذى لا بدّ من أن نعمل عليه في منظومة التعليم منذ الصغر. فعندما يعتقد شخص متديّن أنّه من المهمّ بالنسبة إليه أن يكون حرّاً في أن يعيش بالطريقة التي يشعر بها، تأتي لحظة يدرك فيها أنّ الشخص الآخر، الذي يختلف عنه في الدين، يهتمّ أيضاً بدينه على قدر اهتمامه هو. فكما أرغب في أن أكون حرّاً في عيشي لديني، يجب أن أضمن

حرّيّة الآخر في العيش وفقاً لدينه. إذّاك، يحدث تحوّل في التفكير والسلوك أيضاً، بحيث نتّحد ونصبح حلفاء في النضال من أجل الحرّيّة الدينيّة، وذلك على الرغم من أنّ الحقائق والثوابت الإيمانيّة في أديانا مختلفة تماماً. إنّها نقطة تحوّل غاية في الأهمّيّة تحتاجها مجتمعات الشرق الأوسط. وعندما يحدث ذلك، يتحقّق ما أسماه لينكولن «ولادة جديدة للحرّيّة». فكلّما حدث ذلك، تولد الحرّيّة من جديد، وذلك عبر إدراكي أنّه يتعيّن عليّ لا النضال من أجل حرّيّتي فقط، بل من أجل حرّيّة الآخرين أيضاً.

قراءة النصّ الدينيّ بشكل منفتح: بالنظر إلى أنّ الأديان الثلاثة تنبع أصولها من إبراهيم، فهي تنتمي إلى العائلة ذاتها. لكنّ الفكرة القائلة بأنّ النسب المشترك قد يجمعنا، لم تكن كذلك تاريخيّاً. فقد كان اليهود والمسيحيّون والمسلمون تقليديّاً منفصلين، وفي بعض الأحيان كانوا في حالة عداء بعضهم لبعض. إنّ محاولة تحقيق العيش المشترك بتوحيد الدين الإبراهيميّ ربّما تجد لها صدًى على مستوى المفكّرين، لكن على أرض الواقع ستعيق تنفيذَها صعوباتٌ كبيرة. بالرجوع إلى النصوص المقدّسة، أو إلى القصّة التي يرويها كلّ من الأديان الإبراهيميّة الثلاثة عن ذاته، يدّعي كلّ منهم أنّه الطفل المفضّل لإبراهيم، وتالياً الطفل المفضّل للعهد. هذا يعني إقصاء الآخرين. لذا، فإنّ العلاقة بين أشكال التوحيد الإبراهيميّ الثلاثة هي علاقة تنافس بين الأشقّاء، وعلينا أن نجد نقاطاً مشتركةً في الرواية لنصل معاً الى قراءات مشتركةً توحّدنا في الحياة، وتعمّق العيش المشترك بيننا عبر قيم الرحمة والتعاون والنزاهة واللاعنف وتساوي الفرص. يضاف إلى ذلك تطوير مقاربات عمليّة تحثّ الشباب من الأديان الثلاثة على العمل معاً. وجهة نظري هي أنّه إذا كان الدين سيصبح مصدراً للصراع مرّةً أخرى في العالم الحديث، فسيتعيّن علينا العودة إلى هذه الروايات ومعرفة ما إذا كان في إمكاننا قراءتها بطريقة مختلفة للقرن الحادي والعشرين.

كيف ستبدو النصوص المقدّسة إذا قرأناها بطريقة مختلفة؟ في القراءة الجديدة، يجب التركيز على مفهوم المحبّة الإلهيّة. فإذا كانت محبّة الله لامتناهية، فإنّ حقيقة أنّ الله يحبّني لا تعني أنّه يكرهك. وكونه يختارني لا يعني أنّه يجب أن يرفضك. علينا أن نتمعنّ أكثر في تلك الروايات الكتابيّة عن الخصومات بين الأشقاء، والتي يوجد الكثير منها في سفر التكوين: قايين وهابيل، وإسحق وإسماعيل، ويعقوب وعيسو، ويوسف وإخوته، وليئة وراحيل. فهذه القصص مبنيّة بشكل أدبيّ يستوجب إعادة قراءتها بعمق وبطريقة غير سطحيّة. في النهاية، نرى أنّ الله كان حريصاً جداً على أن يبارك الشخص المرفوض ويعوّضه مع الوقت.

نحن نحتاج إلى هذا الفهم المشترك، لأنّ المرّة الأخيرة التي خضنا فيها حروباً دينيّةً كبرى في الغرب والشرق كانت في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولم يتمّ حلّ الخلافات عبر قراءة دقيقة للروايات الكتابيّة، بل عبر أفكار تعود إلى فلاسفة مثل هوبز ولوك وسبينوزا اقترحوا فصل السلطة المدنيّة عن السلطة الدينيّة، أو بالمصطلح الأميركيّ الفصل بين الكنيسة والدولة، ومعنى ذلك حرمان المؤسّسة الدينيّة من السلطة. هذا هو الحلّ الذي ظهر في القرن السابع عشر، وهو العلمانيّة.

نحن اليوم نحتاج إلى علمنة السلطة على أقلّ تقدير، مع الدور الفاعل للكنيسة فى المجتمع ونجد الآن أنّ هذا يحدث في دول الخليج خصوصاً. كذلك تمرّ بعض بلاد الشرق الأوسط، وأجزاء أخرى من العالم، بعمليّة تعميم للعلمانيّة.

لكنّ ذلك لن يكون سهلاً، فلدينا تراث كبير من الكراهية، ونحتاج إلى مزيد من القراءات والتفسيرات التي تنشر قيم المحبّة والسلام والإخاء والشركة في الأنسانيّة حتّى وإن كنّا نختلف في الدين.